الصحّةُ والطبُّ في الكتاب المقدّس

بقلم الحكيم امين الجميّل

نشر الحكيم الفاضل الشيخ امين الجميّل كتاباً قيماً باللغة الفرنسوية درس فيه كل ما ورد في الكتاب المقدّس من آثار علميّ الصحة والطب ، فأتى فريداً من نوعه . وقد رأينا ان المؤلف الفاضل لم يتحف قراء « المشرق » بملخص كتابه فارسل الينا البحث التالي :

١

ليس أفيد ولا ألذّ من التنقيب عن الآثار والمآثر على اختلاف انواعها : أقلميّةً كانت كاشعار هوميروس وخطب شيشرون ، او تركة افلاطون ونفثات هيبوقراط ، او ازميليّة كتمثال فنوس ميلو وسائر المنقوشات البديعة زينة المتاحف ، او متاعيّة من قلائد واسلحة وآنية . وكنا على يقين من ان رجالاً أنشأوا بعلبك والاهرام او التآليف ، مفاخر الشعراء والفلاسفة ، كان لهم اخوان وزملاء حرّلوا نبوغهم الى خير ما يصبو اليه الانسان : حفظ الصحة وشفاء المرض ؛ وان كنوزاً كهذه يجب التفتيش عنها ؛ وان هذا التفتيش احقُّ به واقدر عليه رجال المكان واللغة والعادات وظروف الاحوال . وكان ان توفّقنا الى وجود الآثار الطبية الكثيرة في اللغة العربية ، وقد نُشر بعضه في « علم الصحة » ، ومؤتمرات مدرسة الطب الفرنسية ، وجمعية الاطباء ، والمجلّات حتى قبل الحرب . ومنه : معرفة البرداء بانواعها : حمّى الثِبّ والورد والربع ، بل مسبّبها اي البرغش . والغربيون يعظّمون كثيراً ، والانكليز يفاخرون جداً بان رونالدروس اول من فضح سرّ ذبوع الملاريا اي بلدغ البعوض عام ١٨٩٨ مع ان الحارث بن كلدة المسيحي ، طبيب نبي الاسلام ، وغيره نادوا بذلك بنصوص لا مردّ عليها ؛ وابن القلانسي بتأريخه للشام سبق بمئات السنين الى وصف الزلزلة الصدريّة الوافدة ؛ وشاعرنا الفريد المتنبي مثّل تماماً « حمّى الدِقّ » اي السلّ في قصيدته التي مطلعها :

ملوكها يملّ عن الملام.

اذ بدأ يصفها ببعض ابيات اولها :

وزائرتي كأنّ بها حياء فليس تزورُ الا في الظلام

ولا غرابة ، او ما هو القائل :

كفى بجسمي نحولاً انني رجلٌ لولا مخاطبتي اياك لم ترَني.

وقد عثرنا على اقدم ذكر لمرض النوام فاذا هو لابن خلدون ، وعلى الشلل الهستريّ وشفائه بالتأثير في الفكر . فلم يكن بختيشوع في دار هارون الرشيد اقلّ براعةً في التشخيص والمعالجة من شاركو في باريس ومستشفاه « السلپتريير ». وفي ميراثنا اللغويّ الفاظٌ دقيقة في المبنى والمعنى لما لم تزل نسمّيه بالعجمة : دفتيريا ودوسنطاريا وهما الخُناق والزُّحار . وهلم جرًّا.

ذلك ما بلغ بنا سريعاً الى ذلك المصدر ذي القِدَم العظيم والجلال المهيب: الكتاب المقدّس . وهو قد كُتب في بلادنا وبلغاتنا وأقاليمنا وفي محيطٍ من عقليّتنا وعاداتنا واخلاقنا وامراضنا.

وبمراجعة الكتاب سفرًا سفرًا وآيةً آيةً ظهرت كنوزٌ ثمينة لما هو من علم الامراض وفنون الوقاية.

ومن الطبيعي انه لم يكن ندحةٌ لواضعي النصائح والشرائع ،من موسى الى سليمان الحكيم الى بولس الرسول ،من ان يُعنوا بالاحوال الجسدية وسنّ الانظمة الصحية بعد الدينيّة : والصحة اساس الكيان والعمران ، كما ان النفس السليمة في الجسم السليم ، والجسم السليم في النفس السليمة . ومخالفة النواميس الدينيّة كثيرًا ما تؤدي الى قتل النفس والجسد . وسنقسم هذا البحث الى شطرين . ففي الاول ننظر ما يهمّ الوقاية ،وفي الثاني ما يختصّ بالامراض وهويّتها. ثم نعقبها ببعض ملاحظات لغويّة.

١ الصحة والوقاية في الكتاب المقدس

لا يتصفّح المُطالع الاسفار المقدّسة حتى تتجلّى له فورًا حكمةٌ أوّليّة هي: «الوقاية خيرٌ من المعالجة». توافرت الآيات الهيجينيّة وقلّت ، على تلك النسبة ، آي

الطبابة والتطبيب : « قبل المرض اتقِ » (يشوع بن سيراخ) « لا تركضوا الى الموت بضلال حياتكم ولا تجلبوا عليكم الهلاك باعمال يديكم ، اذ ليس الموت من صنع الله ولا هلاك الاحياء يسرّه » (سفر الحكمة).

العفاف والزواج

« فخلق الله الانسان على صورته . على صورة الله خلقه ذكراً وانثى . وباركهم الله وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الارض ». « وقال الربُّ الاله لا يحسن ان يكون الانسان وحده فاصنع له عوناً بازائه. » (سفر التكوين) ان هناء المعيشة ومشاطرة عناء الحياة وإخماد الشهوات — بعد حفظ النسل ونموّه — وكل ذلك من ضروريات الكيان وسلامة العافية ، يقضي بالزواج حتماً . فلا يُستثنى الا اولئك الذين يطمحون عن طريق البتوليّة والعفاف وبطرُق سامية الى مثال سامٍ ، عنيتُ التبشير والعلم وخدمة الفقير او اليتيم. فهم « مَن خصى نفسه لله ». وقد نبّهنا فكر القارئ بهذا المكان الى حكمة العناية بأن جعلت عدد الذكور مساوياً في المواليد لعدد الاناث .

واما المخالفة ، اي الزنى ، فقد اوصلت البشرية ، كما يشاهد في جميع انحاء العالم ، الى علل معنويّة وأسقام نفسيّة وامراض شرّ الامراض واقتلها لمرتكبيه ولنسلهم نفسه . فالمستشفيات والمستوصفات والمآوي حتى ما هو منها خُصّ بالصبيان والمجانين والاشلاء تنادي بان الزُّهري والسيلان ، ولدَي الزنا ، في مقدّمة الامراض أذى وفتكاً .

ما أجمل اياماً عرفناها بلبنان ضَمنَ فيها العفافُ والزواج وبكوره وفرةَ البنين وألفةَ الاسرة وسلامةَ قومنا من علل تأتي من كل نوع وبكل نسيج وعضو . وان تقرأ احصاءات الاطباء ، تثق بآيات الكتاب : فما عدا تلك التي دوّنت غضب الله على أونان وصادوم وعامورة ، فانا نقرأ : « اما اولاد الزناة فلا يبلغون أشدّهم وذرّية المضجع الاثيم تنقرض. » (سفر الحكمة) ؛ « فان الاشرار يُستأصلون ، اما الذين يرجون الرب فانهم يرثون الارض. » (المزامير) ؛ « المرأة الزانية مرّةٌ كالعلقم حادّة كسيف ذي حدّين. »

ان يحفظ الناس الوصية : لا تزنِ يُحفظوا من اهوال لاعداد لها ، أشكالها

لا تُحصى : « فان انطلاق المُغوى في اثر الزانية انطلاقُ الثور الى الذبح . » (الامثال) أو « مثل عصفور الى الفخّ » ؛ « فان الزانية حفرةٌ عميقة والغريبة بئرٌ ضيّقة » ؛ « فمُ الاجنبيّة حفرةٌ عميقة فمن سخط عليه الربُّ يسقط فيها » .

ولما كان بالعفاف والزواج في عزّ الشباب الصيانة وقطع الاسباب كُتبَ : « مَن حازَ امرأةً فهي له رأس الغنى وعون بازائه وعمود يستريح اليه . » (ابن سيراخ) « فاحفظوا روحكم ، ولا تغدرْ بامرأة صباك . » (نبوّة ملاخي) أوَ ما هي الحكمة المجتمة آية رسول الامم للقرنثيين وبالاحرى لجميع الشبان في كل الازمان : « ان لم يتعفّفوا فليتزوّجوا فالتزوج خير من التحرّق . » ؟

والعفاف ، كناصع البياض ، تشوبه ادنى لطخة . لذلك وجبتْ أشدُّ الحيطة ، و « الكتاب » لم يبخل ببيانها فالمجال من حافة الحفرة الى قعرها خطوة واحدة قصيرة ، والسبيل كما رسمه الشاعر العصريّ انما هو :

نظرةٌ ، فابتسامةٌ ، فسلامٌ ، فكلام ، فموعد ، فلقاء .

« لا تتفرّس في جمال احد ولا تجلس بين النساء ؛ اخجل من التفرّس بامرأة ذات بعل ومن مراودة جارتها وبقرب سريرها لا تقف . » (ابن سيراخ) ولذلك علّمنا الربُّ ان نطلب هكذا : « لا تُدخلنا التجربة » ؛ « وان من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه » و « ان شكّكتنا عينا فلنقلعهما او يدنا اليمنى او رجلنا فلنقطعها » . وقد اضاف الرسول مرارًا بالمعنى الآتي : « وقد كتبت اليكم في الرسالة ألّا تخالطوا الزناة » رابطًا : « لا تضلّوا ، ان العِشر الرديئة تُفسد الاخلاق السليمة » .

السُكْر والشراهة

فطرة الانسان تهوي به ابدًا الى الشهوات والمعاصي . وما هذه الا السبيل الرحب الى علل نفسية وجسديّة عديدة قتّالة . وبين الشهوات وإنا بميل أشد الى هاتين النقيصتين الترامتين المصحوبتين عادة بشقيقات ورفيقات أخرى كالزنى . وما أكثر رُفقاء الشرّ !

واوّل السكر تأثيره في العقل بذلك الشعور الغرّار الخطير الجارّ معه وبه خمود الآداب وفساد الاخلاق . وهو أذى سجله سفر التكوين على ابينا نوح :

«وشرب نوح من الخمر فسكر وتكشّف داخل خبائه» ؛ ثم المؤدي حتماً الى إتلاف او هرم باكر في انسجة الجسم حتى النسل، بعد حلول البلاهة فيه وملكة السكر عينها.

والشراهة تولد الامتلاء والاحتقانات وتوافر الفضول من دهن واملاح وحوامض وسموم فينشأ عنها النقرس وداء الملوك والحصى والسمنة وداء السكر وزيادة الضغط (السائد وهمه الآن) وربما السرطان. وقد بيّنا انّ السرطان المِعدي لم نعثر عليه الا في معشر الشرهين: «فان الشراهة قتلت اكثر من السيف»[1] (مثل روماني)؛ ذلك ما خلا الاضرار المعنوية في جهلة عملوا «من بطونهم آلهتهم». ولنسمعنّ الآن «الكتاب»: «وكلّم الربُّ هارون قائلاً: «لا تشرب خمرًا ولا مُسكرًا انت ولا بنوك عند دخولكم خباء المحضر («لتعلموا بني اسرائيل») لئلّا تهلكوا (سفر الاحبار). وبما ان الآفتين تعوّدتا ان تصطحبا فالكتاب يجمعها احياناً في الآية الواحدة: «لا تكن بين الشريبين للخمر والمتهمين للّحم» (سفر الامثال). «لمن الويل ولمن الشقاء ولمن المنازعات لمن الشكوى لمن الجراحات عن غير علّة[2] لمن إظلام العينين؟؟ — للذين يدمنون الخمر. للذين يدخلون ليذوقوا الممزوج (فكأنه يتكلّم عن خمّارات أيامنا). لا تنظر الى الخمر اذا احمرّت وأبدَت في الكأس حبابها؛ انها تسوغ مريئة؛ لكنها في الآخر تلسع كالحيّة وتبثّ سُمّها كالارقم. تنظر عيناك الغرائب وينطقُ قلبك بالفواحش؛ وتكون كمضطجع في قلب البحر او كنائم على رأس السارية، وتقول ضربوني ولم اتوجّع؛ رضّضوني ولم اشعر؛ متى استيقظ فاعود الى التماسها؟»! (سفر الامثال). ما أبلغ هذا التمثيل وما ادقه! «الخمر أهلكت كثيرين» (يشوع بن سيراخ). ولهذا الكاتب ايضاً سرد دقيق لاضرار عادية تعتري النهمين كعسر هضم ومغص وما يكون عن ذلك من

---

١) الاحصاء أثبت لنا طول حياة وحسن صحة حبساء لبنان. وهم يأكلون وقمة واحدة في اليوم ولا يذوقون اللحوم بتة.

٢) وبصرنا يمكننا ان تزيد: لمن تدهور السيارات واصطدام القطرات واخطار المحرّكات وخراب المضاربات او المجازفات؟

انزعاج وازعاج لا يجهلها احد . . .

وهو كجميع الكتبة يميّز بين الشرب والسكر وبين الاعتدال والافراط ؛ يستحبُّ الاول بشرط ان لا يبلغ الثاني . ولا يسعني بعد هذا الكلام ان اتساءل ما كانت تقوله الاسفار المقدّسة عن المسكرات الصرفة المتوافرة فيها الكحول ؟

وبكل ما هو صحي اجدني ابدًا امام ذلك الذي راحَ ينادي اهل ائينا بالاله المجهول على عظمته ، وانا انادي به الصحّي العظيم المجهول ، ستيتُ بولس الرسول : « واعمال الجسد واضحة وهي الزنى والعداوات والمحاسدات والقتل والسكر والقصوف » ؛ « وعنها اقول كما قد قلتُ ان الذين يصنعون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله » والاختبار يُضيف لا يَرثون ولا يُورثون الصحة ؛ « خذ يا تيموثاوس قليلًا من الخمر لاجل معدتك الضعيفة . »

وليس ، على ظني ، من يستغرب هذا التشديد في التحذير والتحظير متى تأمل اضرار هاتين الرذيلتين وانهما اصلٌ ، كما تقدّم ، للمعاصي العديدة : « بالخمر الدعارة وبالمسكر الجلبة ، كلُّ من لهج بهما ليس بحكيم . » (الامثال) ، « الخمر والنساء تُضلّان العقلاء ، كثيرون هلكوا من الشره ، اما القنوع فيزداد حياةً » (يشوع بن سيراخ) ؛ « وحين أشبعتهم فسقوا والى بيت الزانية تبادروا . صاروا حُصُنًا مُعلّفة هائمة ، كلٌّ يصهل على امرأة قريبه . » (ارميا النبي) « ولا تسكروا من الخمر الذي فيه الدعارة . » (بولس الرسول) ، « كونوا قنوعين ساهرين فانّ ابليس خصمكم كالاسد الزائر يجول ملتمسًا من يبتلعه . » (القديس بطرس) .

اذن في النقيصتين شرٌّ ذاتي وشرٌّ استتبع ان اسميه شرًّا « نتيجيًا » او مسبّبًا . ولذلك عُدّتا من الخطايا الرئيسية او الاصلية ، كالغضب والكسل والحسد والزنى لما ينجم عنها من علل ثانويّة في نظر الدين والصحة على السواء .

وقد يدخل « الكتاب » دقائق الامور كأنه كتابٌ صحي بحتٌ فيحرّم لحم الخنزير لما قد يكون في هذا الحيوان أليف القذارة وربيبها من ديدان وجراثيم . ويُشير بالملح ويقرّظ التمليح صيانة للاطعمة من الفساد والحتم المؤذيين فضلًا عن الانفة منها . وقد وُضع « الكتاب » في بلاد حارّة يسرع فيها

الثن وهكذا من مثل ذلك كثير.

اتقاء الامراض المُعدية الوبائية

لإيقاف ذيوع الامراض السريعة الانتشار الشديدة الفتك قد سنّت الحكومات الحكيمة ، ولاسيما بعد اكتشافات پاستور وأعوانه ، انظمةً تنتصب سدًّا في وجه تلك الضربات . وهي حيطة قوامها : اعلام الحكومة جبرًا ؛ فصل المريض ؛ التطهير ؛ وقد جاءت بنتائج باهرة . وفي ذلك قد سبق «الكتاب» وسنّ نُظُم وقاية النفس او الجسد او الوقايتين معاً من خطر العدوى . أوما السلامتان تتقابلان وتتساندان كنصفي قنطرة ؟ : « والآن اكتب اليكم الا تخالطوهم اي ان كان احدًا ممّن يُسمّى أخاً زانياً او بخيلًا او عابد وثن او شتّاماً او سكيرًا او خطّافاً فمثل هذا لا تؤاكلوه ... فارفعوا من بينكم الشرير . » وهاك الآن بعض نصوص شيخ المشترعين حتى لما هو من الصحة ، اي موسى ، فكأنك تقرأ فصلًا من فصول علم الصحة في ايامنا . ولنأخذن مثلًا داء البرص أشيع أوباء ذلك الزمان وأبشعها (او القرعة او السيلان آفة الشبان) : « ومتى ظهرت في انسان اعراض الداء فالرجل ابرص وهو نجس فليحكم الكاهن[1] بنجاسته . والابرص الذي به البلوى تكون ثيابه مُمزّقة ويلتثم على شاربيه[2] وينادي : نجس ، نجس ، ما اقامت به البلوى يكون نجساً . انه نجس فليقم منفردًا وفي خارج المحلّة يكون مقامه . واذا حكم الكاهن بطهارته فيغسل ثيابه ويطهر . » اذن لم يذهل الشارع العظيم عن خطر الملابس الشديد . لذلك يكرّر او يزيد : « فليُحرق الثوب مما تكون فيه البلوى لانها برص مفسد يُحرَق بالنار » . فالنار افعل المطهّرات امس واليوم ؛ « وكل فراش يضّجع عليه المصاب بالسيلان يكون نجساً وكل ما يجلس عليه » ؛ « ثم يغسل المتطهّر ثيابه ويحلق جميع شعره (الشعر كالملابس مُستقرّ للميكروبات) ويغتسل بالماء

١) لان الكاهن اوفر علماً واكثر مهابة لتنفيذ الحكم . وهكذا كان الى امس في بلاد لا هو من الشرع والقضاء والانتظام او فضّ المشاكل .

٢) سائلات الانف بيئة الجراثيم تتطاير منها حين السعال والعطاس ؛ ونحن الآن نعمل في مثل هذه الظروف الكمامة .

فيطهر.» ؛ وبعد ان يقيم في المحلة «ولكن خارج خيمته ، سبعة ايام ، يعود الى حلق جميع شعره ويغسل ثيابه ويرحضونه بالماء فيطهر.» ؛ «واذا لمس من به السيلان اناء خزف فليُكسر او اناء خشب فليُغسل بالماء . » وهكذا موسى وزملاؤه كتبة الاسفار قد رسموا في امكنة عديدة: أن مَن وما مسَّ المريض او الميت نَجِس ، تفادياً لما يعلق بالملامس والملابس من الجراثيم المرضية. وقد لا يُصاب هذا الاخير لكنه قد ينقل ميكروب العلة لمن يخالطه. (نقلة الجراثيم). وقد ورد نصوص لتطهير الجدران ولو بالنار.

ولما عُرف من ان بالاعادة افادة والقوم «غليظو الرقاب» ، عاد موسى في سفر العدد الى نواهيه: «مُرْ بني اسرائيل بان ينفوا من المحلَّة كل ابرص وكل من به سيلان وكل منجَّس بميت» وأيَّد هذا التحريم حزقيال وغيره.

وظلَّت الاحتياطات عينها معمولاً بها وبصرامتها الى ايام المسيح والقرون الوسطى كما يتَّضح من وثائق عديدة منها للانجيلي لوقا: «وعند دخوله الى قرية استقبله «عشرة»[1] رجال برص وقفوا — من بعيد — ورفعوا اصواتهم قائلين: يا يسوع المعلم ارحمنا.»

واذا استثنينا بعض الادوية المُطهِّرة المستخدمة الآن لقتل الجراثيم او التخلُّص منها (الكبريت ، الفورمول الخ) فنجد ان اركان الوقاية هي اليوم ما كانت في أقدم الازمان. وإثباتاً ، نقدِّم الآيات الآتية ونقتصر عليها «وليحجز الكاهنُ المُبتلَى بالقرَع سبعة ايام» ، على ان يُجدِّد الحجز قباعاً الى ان يبرأ. وان من مسَّه يُعدُّ نجساً أقلَّه حتى المغيب «وكل شيء يمكن ان يدخل النار تجيزونه في النار فيطهر ، غير انه يتطهَّر بماء النضح. وكل ما لا يدخل النار تُجيزونه في الماء.» (سفر الاحبار) ؛ «وانضح عليكم ماء طاهراً فتطهرون من جميع نجاستكم.» (حزقيال النبي). واذ كان الاعتماد نظافةً وتطهيراً وقوام النظافة وأداتها كما النقي «المَعين» ، وهي الف وياء الصحة والوقاية. فانّا لا نستغرب عبارة الانجيل: «وكان يوحنا يعتمد في عين نون لكثرة الماء هناك».

---

١) كأنهم اجتمعوا في «مبرصة» léproserie

(له صلة)

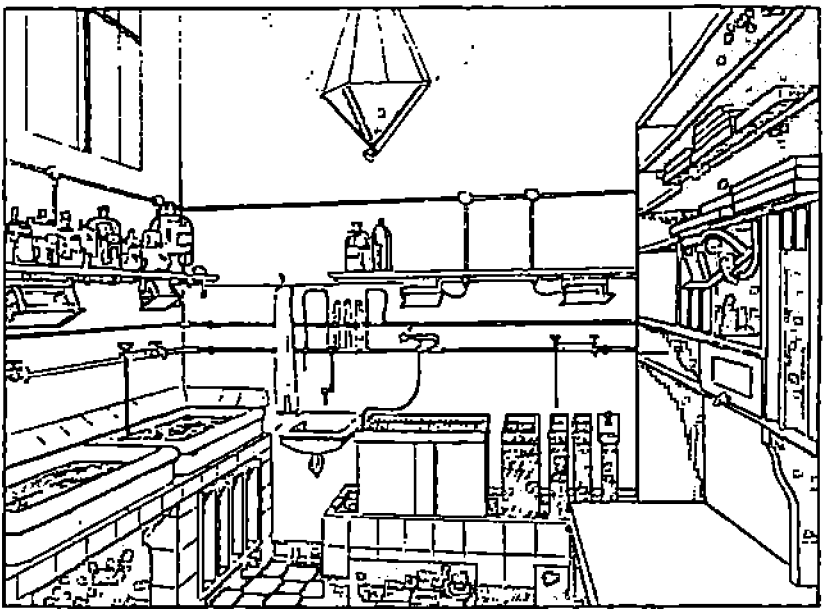

الرسم ٨ – غرفة « التطهير » ترى فيها الى الامام اوعية المخاليل

الرسم ٩ – اخذ صورة الفرس بالراديوگراني ترى الانبوبة من انسال
امّا الشريط الفوتوگراني الصغير الحجم فهو داخل الفم

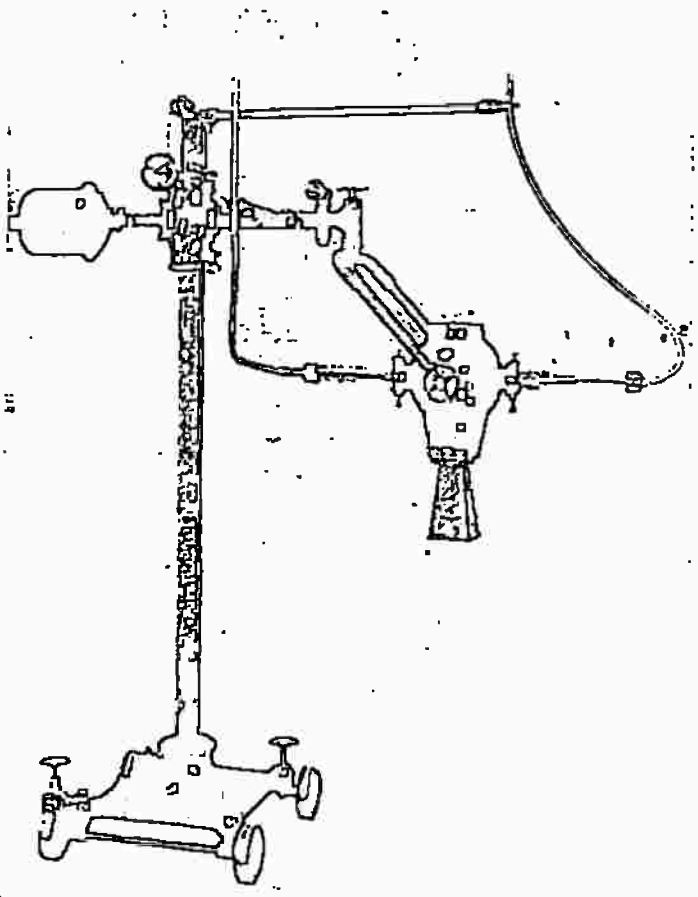

الرسم ١٠ – الانبوبة في الراديوتراپي مغطاة الوسط تتحرك فوق العمود
وعن شمالها المروحة الكهربائية لتبريدها

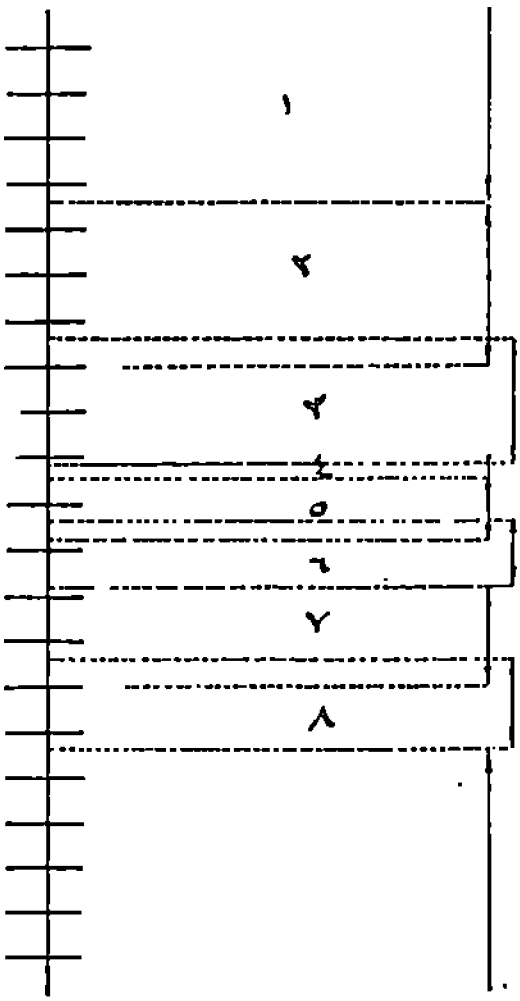

١ – الموجات اللاسلكية طولها ٢٠ كيلومترًا الى ٢٠ سنتيمترًا

٢ – موجات هرز طولها ٢٠٠ مليمتر الى مائة ميكرون

٣ – الموجات تحت الحمراء طولها ٤٠٠ الى ٧/١٠ ميكرون

٤ – موجات النور ٧/١٠ الى ٤/١٠ الميكرون

٥ – الموجات تحت البنفسجية ٤٠٠ الى ١٥٠ انكستروم

٦ – الموجات بين البنفسجية ورنتجن ١٥٠ الى ١٠ انكستروم

٧ – موجات اشعة رنتجن ١٥ الى ١/١٠ انكستروم

٨ – موجات اشعة الراديوم ٤/١٠ الى ٥/١٠٠٠ انكستروم

الرسم ١١ – سلسلة الموجات نسبة بعضها لبعض

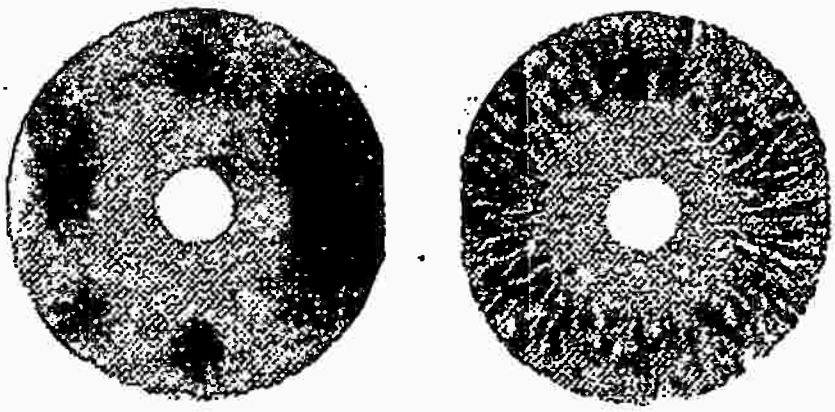

الرسم ١٢ – صورة الاشعة لصفيحة من الالمنيوم قبل تحميتها (شمال) وبعد تحميتها (يمين)

الرسم ١٣ – صورة راديوگرافية للآلي الطبيعية بوسطها المسدس الشكل

الرسم ١٤ – صورة راديوگرافية للآلي المربأة بوسطها المربع الشكل